

تفسير البحر المحيط

@ 508 @ وبينكم . قالوا : والجملة صفة للكلمة ، وهذا وهم لعرو الجملة من رابط يربطها بالموصوف ، وجوزوا أيضاً ارتفاع : أن لا نعبد ، بالطرف ، ولا يصح إلاّ على مذهب الأخفش والكوفيين حيث أجازوا إعمال الطرف من غير اعتماد ، والبصريون يمنعون ذلك ، وجوز علي بن عيسى أن يكون التقدير : إلى كلمة مستو بيننا وبينكم فيها الامتناع من عبادة غير الله ، فعلى هذا يكون : أن لا نعبد ، في موضع رفع على الفاعل بسواء ، إلاّ أن فيه إضمار الرابط ، وهو فيها ، وهو ضعيف . .

والمعنى : أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نشرك به شيئاً ، أي : لا نجعل له شريكاً . وشيئاً يحتمل أن يكون مفعولاً به ، ويحتمل أن يكون مصدرًا أي شيئاً من الإشراك ، والفعل في سياق النفي ، فيعم متعلقاته من مفعول به ومصدر وزمان ومكان وهيئة . .
{ وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُهُمْ ذُلًّا بَعْضُهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ } أي لا نتخذهم أرباباً فنعتقد فيهم الإلهية ونعبدهم على ذلك : كعزير وعيسى ، قاله مقاتل ، والزجاج ، وعكرمة . .

وقيل عنه : إنه سجود بعضهم لبعض أو لا نطيع الأساقفة والرؤساء فيما أمروا به من الكفر والمعاصي ونجعل طاعتهم شرعاً . قاله ابن جريج ، كقوله تعالى { اتَّخَذُواْ أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ * ابْنَ مَرْيَمَ } وعن عدي بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . قال : (أليس كانوا يحلون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم) ؟ قال : نعم . قال : (هو ذاك) . .

وفي قوله : بعضنا بعضاً ، إشارة لطيفة ، وهي أن البعضية تنافي الإلهية إذ هي تماثل في البشرية ، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً ، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم : { إِنْ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } { إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } { أُنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ } فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشد استبعاداً : وهذه الأفعال الداخل عليها أداة النفي متقاربة في المعنى ، يؤكد بعضها بعضاً ، إذ اختصاص الله بالعبادة يتضمن نفي الاشتراك ونفي اتخاذ الأرباب من دون الله ، ولكن الموضع موضع تأكيد وإسهاب ونشر كلام ، لأنهم كانوا مبالغين في التمسك بعبادة غير الله ، فناسب ذلك التوكيد في انتفاء ذلك ، والنصاري جمعوا بين الأفعال الثلاثة : عبدوا عيسى ، وأشركوا بقولهم : ثالث ثلاثة واتخذوا أحبارهم أرباباً في الطاعة لهم في تحليل وتحريم وفي السجود لهم . .

قال الطبري : في قوله : { أَرَبَّابًا مِّن دُونِ اللَّهِ } أنزلوهم منزلة ربهم في قبول التحريم والتحليل لما لم يحرمه الله ، ولم يحله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي ، كتقديرات دون مستند ، والقول بوجوب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي ، كما ذهب إليه الرّوافض . انتهى . وفيه بعض اختصار . .

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ۖ اشْهَدُواْ ۖ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } أي : فإن تولوا عن الكلمة السواء فأشهدوهم أنكم منقادون إليها ، وهذا مبالغة في المباينة لهم ، أي : إذا كنتم متولين عن هذه الكلمة ، فإننا قابلون لها ومطيعون . وعبر عن العلم بالشهادة على سبيل المبالغة ، إذ خرج ذلك من حيز المعقول إلى حيز المشهود ، وهو المحضر في الحس .

قال ابن عطية : هذا أمر بإعلام بمخالفتهم ومواجهتهم بذلك ، وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد ، أي سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف يكون . انتهى . .

وقال الزمخشري : أي لزمتمكم الحجة ، فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع ، أو غيرهما : اعترف بأني أنا الغالب ، وسلم لي الغلبة ، ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره . انتهى . .

وهذه الآية في الكتاب الذي وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم (دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل . .

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ * أَيْسَّرُ لَكُمْ تَؤْتُونَ فِرَارًا هَرِيمًا وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ } أَفَلَا تَعْقِلُونَ